Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إليه طالبين سداد ديون أخيه، فضاقت الدنيا عليه؛ الأمر الذي أدّى إلى تخبطه في أعماله، فسجن مدة قصيرة سنة (1602) أي في العام نفسه الذي شرع فيه بكتابة روايته (دون كيشوت)، ويقال إنه بدأ كتابتها في السجن، ثم عاد وسجن مرات عديدة بسبب من مشكلات متعددة ومختلفة وقعت له. وفي عام صدور (دون كيشوت) مطبوعاً أي في عام (1605) كاد يقع ضحية فرية من أحدهم فحواها أنه قتل عشيق ابنته، إذ وجد هذا القتيل أمام بيته، فاتهم به هو وابنته معاً، لكن وبعد اعتقاله والتحقيق معه ومع آخرين تبيّن أنه بريء من التهمة كما أن ابنته بريئة أيضاً، ولكن تلك البراءة لم تكفل له الحياة اللائقة البعيدة عن التشويش والتقول وعدائية الناس له، فقد تناوشته الشائعات والأخبار الكذوبة كما تناوشت ابنته التي اتهمت بشرفها وسمعتها الاجتماعية.

إذن، كانت تلك الحياة البائسة التي عاشها سرفانتس، وانتهاك شرف أخته وابنته، وعدم نجاحه في زواجه، وموت أخيه وديونه الكبيرة، وتركه للعمل، وتنكر الأدباء والنفاد لكتابته، ودخوله السجن وخروجه منه بين فترة وأخرى، كلها أثّرت في كتابته المختلفة (الشعر، المسرح، القصص، الرسائل... الخ) كما أثّرت في سلوكه، بل إن هذه الحوادث المؤلمة وحالة الصدود التي واجهته بها الدنيا شكلت جميعاً مصدراً هاماً من مصادر كتاباته، فقد نقم على المجتمع وفئاته وحكامه، انتقد القوانين والأنظمة، وهجا الأمكنة، ورجال القضاء والدين، وفنّد عيوب رجال الشرطة، وبيّن أساليب الرشاوى وطرقها، وكشف وجوه المظالم والاستبداد المتوارية في سائر مناحي الحياة، ووقف على جهل النبلاء وفقرهم الروحي، وشرّح بسخرية مُرّة ما يحدث في أوساط الأدباء وما يشيع فيها من التزلف والرياء والنفاق من قبل صغارهم في حضرة كبارهم، وهاجم سلطة (التفتيش) والملاحقة، ودور (الإخوة المقدسة) في محاكمة الناس والحجر عليهم وتقييد حرياتهم، ولم يجد وسيلة أحسن من السخرية ليصب جام غضبه على المجتمع بكل ما فيه لأنه أنكره وأساء إليه. هذه الحياة القاسية كانت مصدراً من مصادر كتابات سرفانتس كما كانت مرجعية من مرجعياته، أما المصدر الآخر لكتابته فهو يتمثل في شقين أساسيين، الأول: ثقافته الأدبية الواسعة التي أخذها عن الإيطالية، والثاني: قراءته الدائمة لقصص الفروسية والبطولات والمغامرات الخيالية التي كان يقصها عليه جده (لأمه) التي شكلت مرجعاً أساسياً يضاف إلى قراءاته وسيرورة حياته ليشكل هذا كله المرجعية الكبرى لثقافته، والمصدر الأعم والأشمل لكل مؤلفاته ورؤيته، ولعل تجواله الطويل في عمله كمحصل للضرائب